



التجاوز

أ.د. محمد تحريشي، كلية الآداب جامعة بشار الجزائر

إن هذا المفهوم حقل دلالي تدور من حوله مجموعة من الدوال الصغرى التي تعني في جملة ما تعني التعدية و التفوق و الامتياز، و هو مقابل للكلمة الفرنسية Dépassement التي تأتي بمعنى التجاوز و المجاوزة و التفوق على الذات، و أصلها Dépasser التي تعني تجاوز، سبق، زاد على. و ترتبط هذه الكلمة بالسلطة فقول: تجاوز حدود سلطته، و ترتبط كذلك بالقياس فتعني طغى، أفرط، غالى. و لهذه الكلمة علاقة أيضا بالنظام فتدل على الاعتداء على خط التنظيم، و قد يتعلق الأمر بالشخص ذاته حين يُغلب على أمره فنقول عنه نُجوز cela le dépasse ، و يعني عدم القدرة و الاستطاعة .

و من الدوال الصغرى لهذا المفهوم ارتباطه بالعدوان و التعدي و هذا المظهر هو مظهر سلبي للمفهوم، و قد لا يبرز كذلك بالنسبة لمن يقوم به؛ لأنه يعتقد أنه حق يجب أن يمارسه. و من هذا الجانب يمكن النظر إلى الفعل الاستعماري، فالمستعمر يرى عمله إدخالا لهذه المجتمعات المتخلفة إلى رنب الحضرة و البشرية، و يرى عمله من طرف المستعمر أنه عدوان و تعدي.

و بناء على هذا يجب علينا أن نفرق بين التجاوز dépassement و السمو و العظمة transcendence من باب السلبية و الإيجابية حيث أن الكلمة الثانية تأخذ بعدا فلسفيا يتعالى فوق الوجود المادي ، و قد يكون مفارقا له ، و قد يقودنا السؤال إلى الممنوع و المرغوب خاصة و أن كل ممنوع مرغوب فيه، فالرغبة تسعى دائما إلى تجاوز العقل، و هذا الأخير يلجمها دائما . والإنسان يسعى إلى التوازن و الاعتدال، لأنه لا يعيش بأحدهما من دون الآخر.

يشغل مفهوم التجاوز حيزا رئيسا في الخطاب القرآني؛ من ذلك القصص القرآني الذي يقوم ، في أغلبه، على مبدأ التجاوز في بنية الحدث و المغزى من ذكر هذه القصة أو تلك؛ من ذلك القصص المذكورة في سورة الكهف، فأصحاب الكهف تجاوزوا عددا من السنين، و صاحب الجنتين تجاوز حدّه فكفر، و موسى تجاوز الحد في طرح السؤال على سيدنا الخضر، و سد ذي القرنين تجاوز حد ياجوج و ماجوج، و كذا الأمر بالنسبة لقصة يوسف و موسى عليهما السلام.



و هو المعنى نفسه الذي ورد في الآية: 43 من السورة نفسها >> اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ >>. النجم : 17 ، الحاقة : 11 ، النازعات : 17 ، النازعات : 37 ، الفجر : 11 . و جاءت أغلبها بمعنى تجاوز الحد و الزيادة عليه.



و يتيح التجاوز للغة فرصة النمو و التطور عبر التواجد بين الحقيقة و المجاز ، فاللفظ يتجاوز حقيقته فيستعمل مجازاً ، و إذا كثر هذا الاستعمال و شاع بين الناس و تجاوز التداول النوعي أصبح حقيقة . ثم إن قمة هذا التجاوز هو الإنزياح هذه القيمة الأسلوبية التي يحققها النص الإبداعي عبر توظيفاته المتعددة و المتنوعة التي تصل باللغة إلى حدود الكائن و الممكن و المحتمل من اللغة ، و الإبداع لا يحقق وجوده إلا إذا تجاوز المؤلف و المعتاد عبر علائق إسنادية تعبر عن علاقات فكرية بين مكونات النص المبدع .

و يرتبط الإعجاز في القرن الكريم بالتجاوز، و لذلك دأبت النظريات الإعجازية منذ البداية إلى التركيز على المفارقة بين النص القرني و النص البشري و على انتماءها إلى اللغة العربية، فالنظام، رأس المعتزلة، علل الإعجاز بالصرفة، و ذهب إلى إن الله صرف الناس عن معارضة القرن؛ لأن قدرته تتجاوز قدرة البشر. و اتجه فريق آخر، كأبي عبيدة و الرماني و ابن سنان الخفاجي، إلى أن القرن تجاوز النص البشري العربي بلاغياً، على حين آخذ نفر من العلماء سبيلاً آخر يقوم على نظرية النظم، و قال بذلك الباقلافي و عبد القاهر الجرجاني، ، فالقرن تجاوز لغة العرب بنظمه المعجز الذي لا يدركه أي نظم . و توالى النظريات الإعجازية تبعا مؤكدة على مبدأ التجاوز.

شكل التجاوز في القرن الكريم حقلاً دلالياً؛ فحملت بعض الآيات بعداً دلالياً من خلال توظيفها لهذا المفهوم حتى أضحت مفتاحاً مهماً في قراءتها من ذلك قول الله عز و جل >> فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ آتِنَا عِدَّتَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا >> الكهف: 62، جاء في تفسير الجلالين " ذلك المكان بالسير إلى وقت الغداء من ثاني يوم قال..."، و قوله تعالى >> وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا آلِهًا كَمَا لَهُم آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ >> الأعراف : 138، ليحمل هاهنا معنى العبور من صفة إلى أخرى، و هو المعنى نفسه الذي ورد في سورة يونس: الآية: 90، و في سورة البقرة: الآية: 249، و جاء في سورة الأحقاف: الآية: 16 قوله عز من قائل: >> أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ تَتَجَاوَرُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقُ إِلَيْهِمْ جَنَّةٌ يَدْخُلُونَهَا يَوْمَ يُدْعَوْنَ >>. و يتشكل التجاوز في النص القرني مع ألفاظ أخرى ليقوي من حمولته المعرفية و الدلالية؛ من ذلك طغى التي تفيد التجاوز في قوله تعالى >> اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ >> طه: 24، بمعنى جاوز الحد في كفره إلى ادعاء الإلهية،



و في الوقت ذاته للمحافظة على مصالح أرباب العمل أيضا .

و يقودنا هذا إلى الحديث عن التجاوز و الجانب الاقتصادي ، ففي مجال الموازنات تحرص الدول على أن لا يقع تجاوز في المصاريف قياسا للمداخيل ، و كلما وقع تجاوز في القروض لجأت المصالح المالية إلى الاقتطاع الضريبي لتعديل الكفة ، و قد يؤدي الاقتطاع الضريبي في بعض الحالات إلى تغيير الوضع الاقتصادي و الاجتماعي لمجتمع ما ؛ من ذلك أن الاستعمار الفرنسي استطاع أن يقطع الكثير من الأراضي الجزائرية بنظام ضريبي مدروس بعناية يعتمد على دفع الجزائر إلى تجاوز الآجال المحددة حتى يقع تحت طائلة العقوبة .

و نشاهد اليوم تجاوزات أخرى في مجتمعنا العربي ترتبط بحق المواطن في الشارع ، من ذلك أن الكثير من السائقين يتجاوزون قانون المرور و يتعدون عليه ؛ كالإفراط في السرعة أو التجاوز الممنوع ، أو بالتوقف في وسط للمحديث مع صديق من دون احترام بقية السائقين. و أن بعض المواطنين يتعدون على بعض الشوارع بنصب خيم للأعراس أو الجنائز طيلة أيام من دون أن يشعروا بالأذى الذي يتسببون فيه ، خاصة و أن الرسول (ص) يدعون إلى إمطة الأذى عن الطريق.

و للتجاوز علاقة مجاورة مع المساواة حيث ينعدم في حال تحقق وجودها ، و أما إذا انتفت فبتأكد حضوره عبر ما ينوب عنه من أمثال المشابهة و المماثلة التي تقتضي وجود عنصرين أحدهما يشبه الآخر بمعنى أن أحدهما أصل حيث تتمكن الصفات الأصلية ، و الآخر فرع حيث تلتقي الصفات الفرعية ، و يقع التجاوز قياسا إلى الأصل و الفرع . و قد يقع تبادل للمواقع بينهما بحسب نظرنا إلى ما هو أصل و ما هو فرع . و هنا يمكن أن نطرح السؤال التالي متى يكون التجاوز إيجابيا ؟ و متى يكون سلبيا ؟ متى يكون محببا للنفس مرغوبا فيه ؟ و متى يكون غير ذلك ؟ قد يتحدد كل هذا بحسب المنفعة و الخير و نعي به ، في هذه الحال ، التفوق والامتياز ، و يرتبط أيضا بالمضرة و الشر و نعي به التعدي على حقوق الآخرين لإلحاق الأذى بهم و التضييق عليهم .

و من هنا يصبح التجاوز مجالا خصبا في حقل التنظيم القانونية التي تحكم مجتمعا ما ، كالقانون المدني و القانون الجنائي ، و قانون العقوبات . و يمكننا الحديث عن تجاوز القانون وخرقه . Abus de droit . dépassement de droit و قد تقع الخروقات المتعددة التي تهدد المجتمع بالانهيار و الزوال ، وقد يرجع ذلك إلى أن القانون قد لا يفهم فهما صحيحا و بذلك يقع التجاوز ، أو أن مطبق القانون قد يتعسف في استعماله للجهل بشروط تطبيقه فيتجاوز حدود القانون ، و من هنا يمكننا الحديث عن قانون الإضراب التي جاء ليحمي حقوق العمال و الدفاع عن مصالحهم المهنية ،